قناة لوغوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
إيبارشيَّة لوس أنجلوس
نوفمبر ٢٠١٥م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

ما هي غاية الأبحاث والدِّراسات الدِّينيَّة والمؤتمرات الكنسيَّة

مقدِّمة ١
التَّعليم الصَّحيح وسماته ١
نوع التَّعليم في الكنيسة القبطيَّة ككنيسة تقليديَّة ٣
التَّسليم السِّري في الكنيسة ٣
التَّعليم اللِّيتورجي في الكنيسة ٥
ضمانة صحَّة التَّعليم اللِّيتورجي ٥
علامة صحَّة التَّعليم اللِّيتورجي ٦
في الختام ٦

مقدِّمة

أريد أن أطرح عليكم سؤالاً هو: ما هي غاية أبحاثِنا ودراساتِنا ومؤتمراتِنا التي انتشرت في الكنيسة اليَوم بشكل ملفت للنَّظر. لقد كادت أن تكون هذه الأبحاث والدِّراسات والمؤتمرات هي الغاية في حدِّ ذاتها، ليس المهم نتائجها، بل المهم استمرارها وانعقادها، حتى يظهر أمام الكُل أننا كنيسة نشيطة. وهنا تكمن الخطورة كل الخطورة، لأنه ما هي الفائدة التي تعود علينا وعلى حياتنا منها، حتى وإن كانت هذه الأبحاث والدِّراسات والمؤتمرات دينية كنسيَّة؟

يرى القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم في كتابه "الكهنوت المسيحي" أنَّ الفلسفة الحقيقيَّة، هي الاعتكاف للتَّأمل والدَّرس. وحين يوجِّه الرَّسول بولس كلامه إلى العلمانيِّين فيقول: «لتسكُن فيكم كلمة المسيح بغنى، وأنتم بكلِّ حكمة معلِّمون ومنذرون بعضكم بعضاً» (كولوسي ٣:١٦)، فكلامه هنا موجَّه إلى الجميع، ليكونوا مستعدِّين دائماً لمجاوبة كلِّ من يسألهم عن سبب الرَّجاء الذين فيهم (١بطرس ٢:١٥)». ولكن حين يتكلَّم القدِّيس بولس مع الكهنة أو المدبِّرين، فيقول لهم: «وأمَّا الشُّيوخ المدبِّرون حسناً، فليُحسبوا أهلاً لكرامة مضاعفة، ولاسيَّما الذين يتعبون في الكلمة والتَّعليم (١تيموثاوس ٥:١٧)».

ولأنَّ الكهنة والخُدَّام والخادمات في الكنيسة، منوط بهم اليَوم خدمة التَّعليم – ولاسيَّما للأجيال الصَّاعدة – فإنَّ الخطورة تمكن هنا، في أنَّ ما يزرعه الخادم أو الخادمة في نفس المخدوم، سوف يؤثر على حياته الفكريَّة والروحيَّة والإيمانيَّة في الكنيسة على مدى سنوات عمره.

التَّعليم الصَّحيح وسماته

أوردُ فيما يلي جانباً ممَّا يقوله ذهبي الفم عن أهميَّة التَّعليم. فإنْ كان كلامه موجهاً إلى الكهنة، إلاَّ أنه يختص بكلِّ من يقوم بخدمة التَّعليم في الكنيسة كما هو الحال اليَوم.

يقول ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م):

[إنه حتى في عصر المعجزات، لم تكن الكلمة بغير فائدة، بل ضروريَّة وحيويَّة. فبولس الرَّسول نفسه رغم أنه كان محلَّ إعجاب في كلِّ مكان بما يصنع من معجزات، كان يلجأ إلى التَّعليم والحوار ... فاسمع مع يقوله في

وصيَّته إلى تلميذه تيموثاوس: «اعكف على القراءة والوعظ والتَّعليم، لأنك إنْ فعلت هذا، تُخلِّص نفسك والذين يسمعونك أيضاً (١تيموثاوس ٤:١٣، ١٦) ... وعبد الرَّب لا يجب أن يخاصم بل يكون مترفِّقاً بالجميع، صالحاً للتَّعليم (٢تيموثاوس ٢:٢٤) ... وأمَّا أنت فاثبُت على ما تعلَّمت وأيقنت، عارفاً ممَّن تعلمت، وأنك منذ الطفوليَّة تعرف الكُتُب المقدَّسة القادرة أن تحكِّمك للخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع» (٢تيموثاوس ٤:١٤، ١٥)] (٤:٣، ٨).

ويقول فم الذَّهب أيضاً:

[القدوة وحدها لا تكفي لتوجيه الآخرين. ولستُ أقول هذا من عندي، فهي كلمات المُخلِّص نفسه لأنه يقول: «من عمل وعلم، فهذا يُدعى عظيماً». فلو أنَّ العمل كان تعليماً، لما كانت هناك ضرورة لإضافة الكلمة الثَّانية، ولكان قد اكتفى بالقول: «من عمل» فقط] (٤:٨).

ويقول أيضاً:

[إذا قام نزاع وجدال حول الأمور العقائديَّة، وتسلَّح كلٌّ بأسلحته من نفس الكتاب المقدَّس، فهل تكفي سيرة أيِّ إنسان للبرهنة على شيء؟ وما فائدة النُّسك والتَّقشُّف إن سقط الإنسان بعد تدريباته الشَّاقة في بدعة من البدع، وانشق جسد الكنيسة بسبب جهل الكاهن (أو الخادم) بالنِّقاش والحوار ... فإنه بسبب هذا، يلزم لمن تقلَّد تعليم الآخرين أن يتدرَّب على مثل هذه الجهادات. لأنَّ الرَّعيَّة عندما ترى قائدها مغلوباً لا يقدر على أن يجاوب مناقضيه، لا ينسبون انهزامه إلى ضعفه، بل إلى عدم سلامة عقيدته. وهكذا ينزلق كثيرون إلى الهلاك بسبب عدم خبرة الرَّاعي (أو الخادم)] (٤:٩).

ويشير فم الذَّهب، في موضوع التَّعليم والوعظ إلى أمرَين هامَّين،

الأوَّل هو الازدراء بالمديح.

والثَّاني هو القدرة على الوعظ الجيِّد.

فيقول في ذلك:

[إذا افتقر أحدٌ إلى هذَين العنصرَين، أصبح العنصر الآخر غير نافع. لأنه متى ازدرى الواعظ بالمديح، ولكن لم يتمكَّن من أن يعلِّم بحسب كلام الكتاب «ليكن كلامُكم كلَّ حين بنعمة مُصلحاً بملح» (كولوسي ٤:٦) فقد صار محتقَراً من الشَّعب.

وإن نجح كواعظ، لكن غلبه حُب المديح، فالضَّرر يحلقه كما يلحق بالشَّعب، لأنه بسبب اهتمامه بالمديح، يحرص أن يتكلَّم بهدف الإرضاء وليس الإفادة.

وكما أنَّ الذي لا يُتقن الكلام لا يفوز برضا الشَّعب، وفي الوقت نفسه لا يقدِّم لهم شيئاً يُذكر لأنه ليس لديه ما يقوله، هكذا من يسيطر عليه حُب المديح، فإنه رغم قدرته على تقديم خدمات جليلة للشَّعب، فإنه عوض ذلك، يقدِّم لهم الغذاء الذي يروقهم، مفضلاً أن يشتري بذلك ضجَّة الهتاف. لذلك فإنَّ أفضل الكهنة هو من تمكَّن من النَّاحيتَين، بحيث لا تطغى إحداهما على الأُخرى ... فحريٌّ إذاً بمن يؤتمن على التَّعليم، ألاَّ يعبأ بمدح النَّاس، أو يتخاذل بسبب كلامهم. بل يعنىَ بأن تكون عظاتُه وأقوالُه من أجل مسرَّة الله] (٥:٢، ٣، ٧).

ويقول أيضاً:

[متى كان الواعظ ذا مقدرة عالية، فإنه سيخسر هذه القُدرة إذا لم يعمل على نموِّها بالممارسة والتَّدريب المتَّصل، حتى إنه يُقال إنَّ التَّعب الذي يبذله المثقَّف، أعظم من التَّعب الذي يبذله غير المتعلِّم ... القدير في الوعظ يحتاج إلى الدَّرس أكثر من غيره] (٥:٥، ٦).

نوع التَّعليم في الكنيسة القبطيَّة ككنيسة تقليديَّة

هنا أودُّ أن أشير إلى أمر ربما غاب عن الكثيرين في أيامنا هذه. وهو أنَّ الدِّراسة والبحث من أجل الوعظ الجيِّد كما يقول ذهبي الفم، قد تركَّزت فقط في الكتاب المقدَّس. في حين أننا ككنيسة تقليديَّة، نؤمن بأنَّ أمورنا الإيمانيَّة قد تسلمَّناها من مصدرين هما:

- التَّقليد المكتوب أي الكتاب المقدَّس.
- التَّقليد الشَّفهي والذي يُسمَّى في الكنيسة الأولى باسم ''التَّسليم السِّري''، المحفوظ في كتابات الآباء.

إذاً، لا يجب أن تقتصر معرفة الخادم على الكتاب المقدَّس فحسب، بل يلزم أن تمد إلى كلِّ مناحي عقائد الكنيسة وحياتها اللِّيتورجيَّة، فهذا أمرٌ من الأهميَّة بمكان، لأنه هو الذي يجعل لتعليمنا، مذاقة خاصة بكنيستنا، تختلف عن أيَّة مذاقة أُخرى للكنائس المختلفة شرقاً وغرباً.

وهذان التَّقليدان المكتوب والآبائي أو الشَّفهي، هما على قدم المساواة في الأهميَّة. ولا غني لأيهما عن الآخر. ومن أجل ذلك، فإنَّ كتابات آباء الكنيسة، هي في غاية الأهميَّة، ذلك لأنها هي التي تشرح لنا أسفار الكتاب المقدَّس. فخارجاً عن شروحاتهم للأسفار المقدَّسة، ربما ننزلق في مخاطر الحيدان عن صحَّة الإيمان. كما أنها أيضاً هي التي نعرف منها كلّ ما يتعلَّق بجوانب حياتنا اللِّيتورجيَّة في الكنيسة، من معموديَّة وميرون وإفخارستيَّا وكهنوت وغيرها.

التَّسليم السِّري في الكنيسة

إنَّ آفة عصر المعلوماتية الذي نعيشه اليَوم، هو إخضاع كلِّ شيء للعقل والمنطق والتَّحليل. أمَّا أن تدخُل هذه الآفة إلى الكنيسة، فهذه هي المأساة بعينها. وأقول مأساة، ليس من قبيل المبالغة، بل هو الواقع بعينه، لأنَّه حتى أسرار الكنيسة نفسها، خضعت لدراسات وأبحاث عقلانيَّة، إلى جانب خضوعها للوسائل السَّمعيَّة والبصريَّة الحديثة، أفقدت السِّر هيبته وجلاله، بدلاً من أن تزيده كرامة ومهابة. وسقط من الكنيسة ما كان يُعرف يوماً فيها باسم ''التَّسليم السِّري''. وقبل أن أواصل كلامي، أودُّ أن أوضح ماذا يعني التَّعليم السِّري؟

يتحدَّث القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) في كتابه عن الرُّوح القُدُس، عن مكانة وأهميَّة التَّسليم السِّري في الكنيسة، وأنَّه إلى جانب التَّعليم المكتوب أو المعلَن، يشكِّلان معاً دِعامة الإيمان الصَّحيح. ولا يمكن فصل أيهما عن الآخر. فيقول:

[العقائد والممارسات التي تقبلها الكنيسة وتحفظها، يستند بعضها إلى التَّعليم المكتوب، والبعض الآخر قبلناه سرًّا، وهو تسليم الرُّسُل. وهذان هما دِعامة الإيمان الصَّحيح، ولهما نفس القوَّة. وهو ما لا يعترض عليه أحدٌ، لاسيَّما من توفَّرت له خبرة في ممارسات الكنيسة. ونحن لا نستطيع أن نرفض ما استقرَّ من عادات في الكنيسة، بدعوى أنَّ هذه العادات لا تستند إلى بُرهان مكتوب، أو أنَّ قيمتها صغيرة. لأنَّنا إن رفضنا عادات الكنيسة، فسوف نجرح الإنجيل نفسه، بل نحوِّل التَّعليم إلى اسم بلا معنى ...

ما هو المصدر المكتوب الذي يحدِّد أن تكون غطسات المعموديَّة ثلاث؟ ويمكن أن نسأل عن العادات الأُخرى الخاصة بالمعموديَّة، مثل جحد الشيطان وكلّ ملائكته، ما هو المصدر المكتوب الذي يُعلن لنا هذا؟

أليس كلُّ ذلك من التَّعليم العظيم والسِّري غير المُعلَن. والذي احتفظ به الآباء في سريَّة تامة، لكي لا يعرفه المتشكِّكون والمتطفِّلون فيحفظون بذلك هيبة الأسرار؟ فالذي لا يجوز إعلانه لغير المعمَّدين، هو ما لا نسمح لهم بحضوره، ولا حتى بتسجيله مكتوباً ...

الرُّسُل والآباء قد أرسوا دعائم الشَّرائع الكنسيَّة، وحفظوا هيبة الأسرار وكرامتها بالإبقاء عليها سرًّا وعدم إذاعتها، لأنَّ ما يُعلن ويُعرف لدى عامة النَّاس يفقد هيبته، ولا يُصبح سرًّا، وهذا هو السَّبب في وجود التَّسليم غير المكتوب الذي يحوي عقائد وممارسات لا تُعلن ولا تُدوَّن حتى لا تُصبح من توافه الأمور متى صارت مألوفة للكُل. العقيدة والتَّعليم اللَّذان يتم إذاعتهما، هما شيآن متمايزان: الأولى نحتفظ بها في صمت، والثَّانية يمكن إذاعتها لكلِّ

الدُّنيا ...][1].

ويحدِّد القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) أنَّ المعموديَّة والإفخارستيَّا وزيت الميرون، هي من الأمور التي لا يُسمح لغير المعمَّدين بالنَّظر إليها، أو الاطلاع عليها[2].

ولقد أحصى الذين درسوا مؤلَّفات القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) خمسين موضعاً منها على الأقل استعمل فيها عبارة متكرِّرة هي:

[سوف يفهم معنى كلامي المعمَّدون فقط].

وعندما كان القدِّيس غريغوريوس النَّاطق بالإلهيَّات (٣٢٩-٣٨٩) يعظ عن الأسرار، كان يقول للشَّعب:

[لقد تحدَّثتُ كثيراً عن السِّر حسبما هو مسموحٌ لنا أن نتحدَّث علناً وأمام النَّاس، أمَّا باقي الحديث، فسوف تسمعونه في السِّر لكي يبقى هذا الكلام سرًّا خاصاً بكم] (عظة ٤ على المعموديَّة).

ويتحدَّث القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) إلى الموعوظين فيقول لهم:

[نحن لا نتحدَّث علناً عن الأسرار أمام الموعوظين، بل نتحدَّث بطريقة غير واضحة لا يعرفها إلاَّ المؤمنين فقط. أمَّا الذين لا يعرفون، فلا تؤذيهم الكلمات التي سمعوها].

ويقول أيضاً القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) في مقاله الافتتاحي لطالبي المعموديَّة:

[عندما تتسلَّم تعليماً، إن سألك موعوظ من الخارج قائلاً لك: ماذا يقول المعلِّمون؟ لا تُجبه بشيء. إنَّنا نسلِّمك سرًّا ورجاءً في الحياة المقبلة، فاحفظ السِّر لذاك الذي يهبك المكافأة.

لا يقُل لك أحدٌ ماذا يصيبك لو عرفته أنا أيضاً؟ فإنَّه كالمريض الذي يطلب خمراً، وإذ يأخذه في وقت غير مناسب، يحدث له هذيان، وبهذا يتحقَّق شرَّان: المريض يموت، والطَّبيب يُلام ... إنك كنتَ يوماً موعوظاً، ولم أخبرك بما أُعلنه لك الآن. إنَّك ستختبر كيف أنَّ أمور تعاليمنا عالية، وعندئذ تدرك أنَّ الموعوظين لم يتأهَّلوا بعد لسماعها].

هذا هو التَّعليم السِّري الذي سقط من كنيسة اليَوم، فاضرَّ باستيعاب النَّاس لأهميَّة أسرار الكنيسة وهيبتها.

لقد تحدثتُ مع بعض الآباء الكهنة، وعلى مدى قرابة ثلاث ساعات، عن موضوع بعنوان: "القُدَّاس الإلهي تمجيد للثَّالوث". واتضح لنا أن تمجيد الثَّالوث يغطي القُدَّاس كله، من بدايته إلى نهايته، ولكنَّنا لا نسمع هذا التَّمجيد المختص بالثَّالوث القدُّوس أثناء حضورنا للقُدَّاس الإلهي. وكانت مفاجأة لجميع الحاضرين. ولقد أجاب الأنبا بولس البوشي (القرن الثَّالث عشر) على هذا الأمر، بقوله:

[إنَّ الذُّكصولوجيَّة (أي الذُّكصا أو التَّمجيد) تقال سراً من أجل إتاحة فرصة الهدوء والصَّمت في حضرة الثَّالوث، حتى لا يكون التَّمجيد من الفم دون القلب، ولكي تتهيأ الفرصة لطلبة القلب، التي تخص كلّ واحد].

أصبح الكثيرون يتكلَّمون عن الله، وهم لا يعرفونه. ويحضرون إلى بيته ولا يشعرون به. والعلاَّمة الواضحة والظاهرة على ذلك، هي كنائسنا التي ضعفت فيها روح المهابة والمخافة من حضرة الله السَّاكن في بيته.

إنَّ معرفة القدِّيس يوحنَّا الحبيب عن الله، يشرحها لنا بقوله: «الذي كان من البدء. الذي سمعناه. الذي رأيناه بعيوننا. الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة ...» (١يوحنا ١:١). ويقول المزمور: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرَّب» (مزمور ٣٤:٨).

إذاً معرفة الله يلزم أن تكون معرفة اختباريَّة، معاشه، لها فعل ملموس في حياتنا. وأوضح دليل على وجود مخافة الله في

١- القدِّيس باسيليوس الكبير، الرُّوح القُدُس، مرجع سابق، ٢٧:٦٦،٦٧

٢- نفس المرجع، فصل ٢٧

حياتنا من عدمها، هو عبادتنا له في بيته.

لقد كان البابا أثناسيوس الرَّسولي يقول: إنَّ الإنسان بحضور الكلمة، دُعي إلى الوجود من حالته الطبيعيَّة الأولى وهي عدم الوجود، فإنه بالطَّبيعة متى تجرَّد من معرفة الله، عاد إلى العدم. (تجسد الكلمة ٤:٥).

وفي الأدب الرَّهباني نقرأ:

''التقى سائحٌ بسائحٍ آخر في بريةِ سيناء، فسأله: «بماذا يكون الخلاصُ»؟ قال له: «**بالمعرفةِ** بحقائقِ الأمورِ **والعملِ** بحسبِ الحقِّ». قال له: «إذن فمن لا يعرف لا يخلُص»؟ قال: «بلى». فقال: «وما هي المعرفةُ إذن»؟ قال: «أن يعرفَ العبدُ حقيقةَ خالقِهِ، ومِمَّ خلقه، وما يؤول إليه أمرُه، فإذا عرف ذلك، فإنه لن يعصيه، بل سوف يصنع مرضاته طول حياته». فقال: «صدقتَ»، ثم انصرف''.

واضحٌ من القَول السَّابق، أنَّ المعرفة قد تُرجمت إلى فعل، يؤول إلى الخلاص.

ونقرأ أيضاً: ''بدءُ الصَّالحات وكمالها، هو حدُّ الاتضاعِ بمعرفةٍ حقيقيةٍ، لأنَّ المعرفةَ مقترنةٌ بالمتواضع، الإنسانُ مصنَّفٌ من نفسٍ وجسدٍ، إن لم يستعمل الجسدُ خبزاً فلن يعيشَ، كذلك النَّفْسُ إن لم تتغذَّ بالصَّلاةِ والمعرفةِ الرُّوحانيةِ، فهي مائتةٌ''.

ونقرأ أيضاً في الأدب الرَّهباني:

''إن ثلاثةً من الإخوةِ زاروا شيخاً، فقال له الأول: «يا معلمُ، لقد كتبتُ بنفسي العتيقة والحديثة»، فأجابه الشيخُ: «لقد ملأتَ طاقات قلاَّيتِك ورقاً». فقال له الثاني: «إني قد حفظتُ العتيقةَ والحديثةَ في صدري»، فقال له الشيخُ: «لقد ملأتَ الهواءَ كلاماً». أما الثالث فقال له: «لقد نبتَ الحشيشُ وملأ موقدي». فقال له الشيخُ: «لقد طردتَ عنك محبةَ الغرباءِ''.

ونُصلِّي في المزمور الكبير ونقول: «صلاحاً وأدباً ومعرفة علِّمني». ويقول أحد الشُّيوخ: ''طلب داود الطُّوباوي من الله قائلاً، أعطني صلاحاً وأدباً ومعرفةً، لأنَّ الصَّلاحَ بغير معرفةٍ باطلٌ، كذلك المعلِّم بلا صلاحٍ فهو معلمٌ باطلٌ''.

من أجل هذا، إذا لم تُنمِّ أبحاثُنا ودراساتُنا ومؤتمراتنا ومؤلفاتنا روح العبادة في الكنيسة، وتعمِّقها، فما الفائدة منها؟ وبمعنى آخر، إنَّ غاية أيَّة أبحاث أو مؤتمرات دينيَّة مسيحيَّة، هي تعميق العلاقة بالمسيح، ليحتل مكانه الحقيقي في بيته الذي هو الكنيسة. أي أنَّ العلامة التي نستدل منها على أنَّ هذه الأبحاث أو الدِّراسات هي من الله، أنها تقود إليه. وكلُّ دراسة كنسيَّة بعيدة عن العبادة الكنسيَّة تظل مجرَّد معرفة جدباء لا تُجدي نفعاً.

التَّعليم اللِّيتورجي في الكنيسة

• وأمَّا عن التَّعليم اللِّيتورجي في الكنيسة، فأودُّ أن أضعه في إطار دعامتين، الأولى هي ضمانة صحَّة التَّعليم اللِّيتورجي أو الطَّقسي في الكنيسة، والثَّانية هي علامة صحَّة هذا التَّعليم.

ضمانة صحَّة التَّعليم اللِّيتورجي

تعرَّضت الطُّقوس الكنسيَّة في الآونة الأخيرة إلى شروحات وتأويلات تحت عنوان: ''روحانيَّة الطُّقوس''. ولسبب الجهل بالتَّاريخ الطَّقسي لها، فقد جاءت هذه التَّأملات أو التَّأويلات بعيدة كلَّ البُعد عن المعنى اللِّيتورجي لما تعنيه هذه الطُّقوس، بل وبعيدة عن التَّقليد اللِّيتورجي المتوارث في الكنيسة. لهذا يلزم قبل الحديث عن روحانيَّة الطُّقوس في أيَّة جزئية من الطُّقوس، معرفة التَّاريخ الطَّقسي لها، حتى تأتي الشُّروحات أو التَّأملات خادمة للطَّقس، وليس مشوِّهة له.

ولقد كان السَّبب في انتشار هذه الشُّروحات المشوَّهة، هو أنَّ الكنيسة لا تسمح بأيِّ خروج عن الإيمان، أو أيِّ شرح له يمس الإيمان الصَّحيح. وأمَّا شروحات الطُّقوس الكنسيَّة، فلم تخضع لهذا الحظر، فأصبح أيُّ واحد يستطيع أن يقول أيَّ شيء أو يتأمَّل كيفما يعن له التَّأمُّل، في أيَّة جزئية من طقوس الصَّلوات، بدون محاسب أو رقيب.

إنَّ توقُّف التَّعليم الكنسي لسرّ المعموديَّة كميلاد جديد من الله، وكباب للدُّخول إلى الإيمان وتحقيقه، تسبَّب في تسلُّق الكثيرين لأسوار الكنيسة للحديث عن الإيمان، بعيداً عن المعموديَّة والإفخارستيَّا. وإن تيقَّنا أنَّ سرَّ المعموديَّة المقدَّس يمتد

ليشمل حياة الإنسان كلَّها، أدركنا في النِّهاية أنَّه بداية الطَّريق إلى الله، كما أنه أيضاً نهاية الطَّريق إليه.

علامة صحَّة التَّعليم اللِّيتورجي

ما هي الفائدة من التَّعليم في الكنيسة؟ وما هي منفعته لحياتنا؟ هل هي المعرفة من أجل المعرفة فحسب؟ إنَّ معرفة المسيح والكنيسة، لا يمكن أن تكون معرفة عقلانيَّة، لأننا نسعى لمعرفة سرّ المسيح والكنيسة. والسِّر لا يُدرك بالعقل. فهي حتماً لابد أن تكون معرفة اختباريَّة، معرفة الله بواسطة الله. يقول عنها القدِّيس يوحنَّا الحبيب: «الذي كان من البدء. الذي سمعناه. الذي رأيناه بعيوننا. الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة ...» (١يوحنَّا ١:١). ويقول المزمور: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرَّب» (مزمور ٣٤:٨).

من أجل هذا، إذا لم يقود التَّعليم في الكنيسة إلى تأسيس لعبادة الرَّب بالرُّوح والحق في بيته، يتحوَّل إلى تعليم بلا جدوى. فغاية التَّعليم الكنسي هو تعميق العلاقة بالمسيح من خلال الكنيسة، ليحتل الرَّب مكانه الحقيقي في بيته الذي هو الكنيسة. أي أنَّ العلامة التي نستدل منها على صحَّة التَّعليم الكنسي، هو أسلوب عبادتنا للرَّب في بيته.

ولكن ماذا يعني هذا؟ لقد قال الله لموسى: «إني أكون معك، وهذه تكون لك العلاَّمة أني أرسلتك. حينما تُخرج الشَّعب من مصر، تعبدون الله على هذا الجبل» (خروج ٣:١٢).

نخلُص إلى القَول بأنَّ الدَّليل على أنَّ الله استأمن موسى على ناموسه ووصاياه، هو عبادة الشَّعب لله. هذه نقطة في غاية الأهميَّة.

لقد كانت عبادة الله في بريَّة سيناء، عبادة مقنَّنة، بمراسيم طقسيَّة محدَّدة بغاية الدِّقة. لأنَّ الله يريدنا أن نعبده بالكيفيَّة التي يريدها هو. وكلُّ الشَّرائع والنَّواميس التي وُضعت من أجل هذا الغرض، كانت تهدف إلى غاية واحدة، هي تأهيل الشَّعب ليستحق حضور الله بينهم في بيته. وهذه كلُّها، دعاها كتاب العهد الجديد ب ''أشباه الحقيقة التي في السَّماويات'' أشباه الحقيقة ليس إلاَّ. أمَّا كنيسة العهد الجديد التي ورثت كلَّ ميراث كنيسة العهد القديم، لكن على أساس دم ابن الله، فصارت هي الحقيقة عينها. فانظروا كم صار الفارق مذهلاً بين العهدَين وبين الكنيستَين. فهل نحن نعطي لله كرامته التي يستحقّها في بيته؟ أم لا زال صوت الرَّب يقول: «إن كنتُ أنا أباً فأين كرامتي؟ وإن سيِّداً فأين هيبتي؟» (ملاخي ١:٦). واعلموا جيِّداً أنَّ الرَّب يقول: «كيف يدنس اسمي؟ وكرامتي لا أعطيها لآخر» (إشعياء ٤٨:١١).

في الختام

إليكم يا كلَّ من يخدم الكنيسة، أوصيكم بالكنيسة بيت الرَّب، مهابةً ومخافةً وتقديساً، لا هُتافاً وتصفيقاً وزغاريد. فقط، عليكم أن يترسَّخ في يقينكم حضور المسيح في بيته الذي هو الكنيسة، وأنه هو وحده صاحب البيت.